التمثيل الصامت : المفهوم والتقنية

د.أحمد محمد عبد الأمير
باحث وفنان مسرحي / جامعة بابل – كلية الفنون الجميلة
Ahmeed_pantomime@yahoo.com

ورشة دمى للتمثيل الصامت

يعرّف التمثيل الإيمائي الصامت بأنه : التمثيل بلا كلام ، أو فعل بلا كلام . ويعرّفه (فتحي إبراهيم) في معجم المصطلحات الأدبية ، بأنه : فن تصوير شخصية أو حالة معينة باستخدام الإيماءات وتعبيرات الوجه والحركات الجسمانية . كما يعرّفه (محمود كحيلة) في معجم مصطلحات المسرح والدراما بأنه : فن يحاكي به الممثل نماذج بشرية أو مشاهد واقعية من الحياة اليومية ، وقد يكون مبالغاً فيه كأي يحاكي الممثل دخان سيجار ويعتمد اعتماداً كلياً على مهارات الممثل في تغيير ملامح وجهه وإيماءاته والتحكم في حركات جسده . ويعرفه الممثل الإيمائي الفرنسي (جان لوي بارو) : فن الصمت و الفراغ . ويعرفه المخرج العراقي (عوني كرومي) : بأنه فعل يقوم به الممثل عبر الإيماءة للتعبير عن شعور معين أو معنى أو بقصد الإخبار أو الإشارة لحالة أو موقف ما ، مستعملاً الإيقاع ووضعيات الجسد ، والإيماءة فيه تأخذ شكل المادة التي تريد أن تعبر عنها ، أو شكل المساحة ، أو شكل الحالة ، أو الدافع. وهي تحتمل بهذا المعنى دور المفسر للفعل ، للرغبة ، للطبع .

التمثيل الإيمائي الصامت لا يستخدم في العادة أدوات أو ديكور أو متممات أو مكملات العرض التقليدية ، سوى لغة الجسد وقدرته التعبيرية في خلق الإيهام بالبيئة المتخيلة .. ويتم ذلك من خلال رسم الحركة المقاربة ، أي الشكل الهندسي للشيء وللفعل ولردة الفعل ، ومن ثم تكثيف الواقع بشكل إيهامي ، ويتم ذلك من خلال الذاكرة الحسية والانفعالية للفعل ولردة الفعل . ويكون عادة عرضا كاملا طويلا (نصف ساعة) أو قصيرا (خمس دقائق) ، أو مشهدا أو جزا من مشهد في مسرحية لفظية ، إذ من الضرورة أن يتقن الممثل (المسرحي ، والسينمائي) التمثيل الإيمائي الصامت لأنه يمنح الممثل القدرة في الأداء والمرونة في الحركة والدقة في تشخيص الأدوار وتجسيد الأفكار ، فالكثير من الممثلين المحترفين يدخلون دورات وورش مكثفة للتدريب على التمثيل الإيمائي الصامت .

التمثيل الصامت (play dumb) : نمط من أنماط فنون خشبة المسرح ، يعتمد على الأداء الإيمائي بدون استخدام الكلام ، إذ يرتكز فيه العرض على قدرة الجسد المرن في تصوير بيئة الحدث والمكان ، في فضاء تجريدي يتكون عادة من ماكياج وأزياء .. الخ ، ويرافقها المؤثر الموسيقي . من أقدم الفنون التي عرفتها الشعوب وجزا من نشاطها ولا زال مستمرا في التواصل المعرفي والجمالي كونه معتمدا على لغة التعبير الفطري المباشر لدى الإنسان من غير حواجز لغوية ، مما جعله من أهم النشاطات الفنية وأجملها وأقدمها على الإطلاق والأقرب إلى الغريزة والفطرة ، فالحركة والإيماءة جزءا من سلوكنا وهناك أسباباً عدة تدفع إلى الافتراض بأن التطور اللغوي كان من خلال الإشارات الإيمائية وليس من خلال الصوت ، يشير الافتراض إلى أنّ الأسلاف الأوائل

لم يكونوا مهيأ جيداً لتوليد العلامات الصوتية ، ولكنهم كانوا مكيفين لأداء حركات إرادية بالأيدي والأذرع والأقدام . فالتعبير الإيمائي الصامت ، جزأ أساس من التواصل البشري القديم (فالتعبير الإيمائي الصامت هو الإنسان) ويعدُّ الصورة المتشكلة لما نفكر فيه . فالتمثيل الإيمائي الصامت من اقرب الفنون الأدائية إلى الإنسان ومن أقدمها . كما تشير آخر الدراسات العلمية أن نسبة (86 %) من لغة التواصل ما بين البشر مستندة على لغة الإيماءة وان المتبقي (14 %) هي لغة الكلمة والصوت . عرف الجمهور الحديث التمثيل الإيمائي الصامت من خلال أعمال السينمائية للفنان الإنكليزي (شارلي شابلن) والمعاصر (مستر بن) ، وفي المسرح عبر (جان لوي بارو ، اتيان ديكرو ، مارسيل مارسو ، جاك ليكوك)

نشأ التمثيل الإيمائي الصامت مع نشأة الإنسان وبزوغ الصراع مع الطبيعة ونشوء منطق الحاجات ، ثم تطور إلى صورة احتفالات سحرية تمثيلية راقصة صامتة ، الغاية منها التشبيه أو التقليد بالتمثيل ، والغاية الأخرى استمرار العلاقة بين المشبه والمشبه به بطريقه سحرية تؤكد حضور الشيء أو استحضاره بتجسيد شكله أو حركاته . الغاية الأولى تستلزم التدريب على سلوك الحيوان من خلال دراسة حركاته وسلوكه قبل اصطياده ، أما الغاية الثانية فهي مرحلة متقدمة ، تستلزم وجود مصمم للطقس الاحتفالي إلى جانب اختيار التقنية الملائمة له ، فالمصمم هو الكاهن أو صاحب المعبد ، وهو الراقص والممثل الإيمائي الرئيس ، وهو صاحب فكرة الاحتفال والمصمم الحركي للممثلين والمجموعات .

من هنا بدأ تحول الكاهن المسؤول عن رعاية وتنظيم الطقوس الدينية إلى ممثل ، وبتطور وتعقيد الطقوس الاحتفالية تنشأ طبقة من الممثلين الكهنة ، ومن تدريب هذه الطبقة على الرقص والتمثيل الإيمائي الصامت ، تأسس ما يمكن أن نطلق عليه بالمسرحية الإيمائية الطقسية في شكلها البدائي ، يكون العنصر الفعال في تأديتها جسد الممثل ، فهو العلامة البشرية الدالة ، فالراقصين والممثلين يرتدون أقنعة تمثل بعض الحيوانات ، ثم تطور بتقديم بعض المناظر والصور وكانت هذه المسرحيات قائمة على الأداء الصامت .

في بلاد ما بين النهرين ، كان التمثيل الإيمائي الصامت شأنه شأن الأساطير والملاحم ، لصيق بالمعتقدات والفكر الديني والاجتماعي ، ولا يقل أهمية عن النتاج الأسطوري والملحمي. فقد كان الرافدينيون القدماء يحتفلون في الربيع بالأعياد الاكيتوية (أعياد اكيتو) ، المتمثل بأسطورة نزول عشتار (إلهة الحرب والحب) إلى العالم السفلي لتفتدي تموز (إله الخصب والنماء) ، فيبتهل الناس بخروجه من العالم السفلي ، ويمارسون فيه طقوس الزواج ، ويؤدى ذلك كلّه بالغناء والرقص والتمثيل الإيمائي الصامت .

يمكن القول بأن طقوس الفداء والفناء والعودة ، قد أكّدت على أنّ التمثيل الإيمائي الصامت كان لصيقاً بالبيئة الثقافية والدينية والاجتماعية ، كما كان ملتصقاً بمجمل الفعاليات الفنية التي رافقت التغيرات السياسية والاقتصادية والجغرافية التي تميزت به مجتمعات ودول العراق القديم كما

يمكن عدّ المدونات الرقمية الطينية لوحات إيمائية صماء ذات شكل درامي .

وعليه فإنّ بنية الحركة الإيمائية الصامتة لدى الإنسان الرافديني كانت ذات دلالات عقائدية مرتبطة بأغراض دنيوية أكثر من أية دلالات أخرى ، وهذا لا يعني بأن التمثيل والرقص الإيمائي الصامت كان مقتصراً على هذا الغرض ، بل أن هذا الغرض كان الدافع الأول وراء نشوء التمثيل الإيمائي المعبر فيما بعد عن البعد أو الغرض الجمالي ، وبطبيعة الحال المعرفي الثقافي الذي يعزز بدوره دلالات تنم عن عقلية ونفسية الإنسان الرافديني آنذاك، والذي كان محباً للحياة أكثر من القدماء المصريين مثلاً .

يستنتج من ذلك أن التمثيل الصامت في بلاد وادي النيل كانت تركز حول الحياة الأخرى والإشادة بها ، متخذين من التصميم الهندسي فكرة أساس في رقصاتهم وتمثيلهم الإيمائي ، وهم بذلك شأنهم شأن الرافدينيين يتعالون في هذا النمط الأدائي عن التشخيص الحسي نحو الاختزال المعبر ، وفي كل الأحوال كان التمثيل الصامت المصريين القدماء ذات دلالات عقائدية أخروية ، لا تخلو من قدسية وتراتبية اجتماعية ، إلى جانب دلالات معرفية عقلية متقدمة بدا الجانب الوجداني فيها مؤثراً وفعالاً .

عَرِف اليونان فن التمثيل الإيمائي الصامت (المايم) في شكل درامي أدبي ويعني التقليد. وهو يطلق على كل من المسرحية والممثل ويعني المصطلح حرفياً (التمثيل) . على الرغم من اهتمام اليونانين بالمايم ، إلا أن الصوت كان همهم الأول في العروض المسرحية ، ذلك أن الإيماءات والحركات كانت مقيدة وبسيطة ، ولأن تعابير الوجه كانت متخفية وراء قناع . وهو ما يفصح عن أنّ فن التمثيل لم يزل مقيداً وغير مكتمل الاستقلال كفن قائم بذاته .

كانت حبكة المايم في ذلك الوقت تدور حول مشاهد الفسق والرذائل ، وتشير بعض الأدلة إلى أن أعمال الفسق كانت تقدم على مسارح المايم في عصر الإمبراطورية الرومانية ، بل إن مناظر الإعدام كانت تقدم على المسارح باستعمال المجرمين بدل الممثلين . ومن المعروف أن المؤلف عند اليونان كان يتولى عملية تقديم العمل الصامت وإنتاجه .

يمكن القول إن فن التمثيل الصامت لدى اليونانيين لم يخلُ من نزعة نقدية ، سواءً في الأداء أو الفكرة أو الموضوع ، ذلك أنهم سعوا إلى تقديم الواقع ونقده في الوقت ذاته . كما لم تخلو أعمالهم من أسلوب محاكاتي يردد الواقع بكل حيثياته مقدماً إياه بأسلوب ترغيب وترهيب في آنٍ واحد ، وهذا ما يجعل بطبيعة الحال للبنى الإيمائية دلالات اجتماعية ثقافية نقدية وجمالية معرفية تحتفي بمرونة الأداء وجمالية الجسد .

خلت المايم من الكورس أو الجوقة والخلفية السياسية ، وهذا دليل على أن المايم تطورت وأصبحت أكثر صمتاً ، واعتمدت كثيراً على الأداء الإيمائي ، لأن الكورس كان يلقي الأناشيد وان الجوقة كانت تعزف وترقص ، كما أن خلوه من الخلفية السياسية يؤكد ابتعاده عن الحياة الواقعية . وفي ذلك دلالة واضحة إلى أن فن التمثيل ببنائيه الإيمائي قد شهد تطوراً تقنياً فنياً ملحوظاً عن السابق .

ابتكر الرومان فن (البانتومايم) ، ويعني فرعاً من فروع العروض المسرحية يُترجم في اللغة القديمة إلى (الشخص الذي يمثل كل دور) أو (الذي يقلد كل الأشخاص وكل الأشياء) كما أن أصل الكلمة يعود إلى اللغة الإغريقية ، وهو فن التمثيل الإيمائي الذي يعني فن التقليد أو المحاكاة .

هناك وصفاً مفصلاً لعرض بانتومايمي ، حيث يبرز للجمهور ممثل واحد يضع قناعاً، ومن ورائه كورس يحضر فيجلس ويجلس معه فرقة موسيقية ، ويأخذ الممثل يشخص وحده ويرقص مؤدياً مسرحية أسطورية ، بينما ينشد الكورس نصوص المسرحية ، ويضع الممثل في مقدمة المسرح جرساً أو صنجاً يؤكد به وحدة النظم على إيقاع الموسيقى ، وينتج جوا نفسيا عاما يمسك به أنفاس الجمهور .. وهذا عرض مسرحي يقوم به ممثل بمفرده وبمهارة عالية اختزلت وتركزت في الأداء الذي يقوم به . وهنا كان الأداء التمثيلي للممثل الرئيس (الممثل الواحد) أداءً إيمائياً صامتاً ، أما العرض المسرحي البانتومايمي ، فهو عرض لم يكن صامتاً ، لأن أناشيد الكورس تتخلل أداء الممثل . وهذا يساعد الممثل الإيمائي على التشخيص وتجسيد الفعل ، ويسهل للمتلقي فهم وإدراك حركة الممثل ، وهي طريقة بدت قريبة من طريقة (ثسبس) اليوناني في الإنشاد والتشخيص (الممثل الواحد) . كما نجد أنه تم توظيف أكثر من تقنية فنية لإيصال فكرة العرض ليحمل دلالات تواصلية وجمالية .

التمثيل الصامت في القرن العشرين : اجتاحت أوروبا بعد ذلك موجة عارمة من الاهتمام البالغ بالرياضة البدنية كتعويض وترميم عن الإنهاك البدني الناتج عن العمل في المصانع ، وبالتالي ازدياد الوعي بأهمية الجسد كوسيلة اتصالية جمالية ، انتشرت حتى في فنون أخرى سعت إلى تعريته لأجل البحث عن أماكن للتعبير جديدة . فعلى سبيل المثال ، اهتم الممثل الإيمائي الفرنسي (إتيان ديكرو) بالشكل الفني البدني للتمثيل الصامت في فرنسا ، إذ توصلا إلى نظريات ساهمت في دعم تيار التمثيل الصامت الحديث وبلورته بشكل أصبح علماً له أبعاد محددة ، وادخلا التكنيك الأكروباتيكي ، إذ احتل الابتكار (الارتجال) الإيمائي الصامت دورا في خطته التعليمية ، في مواضيع اعتمدت الأسطورة والخيال والواقعية ، ويجد (ديكرو) أن الرقص والرياضة البدنية تقوم على المبادئ نفسها التي تقوم عليها الإيماءة في التبسيط والانتقاء والتنظيم

أما (مارسيل مارسو) الفرنسي (1923 - 2006) ، وهو أشهر محدث وممثل إيمائي صامت في العصر الحديث ، بدأ نشاطه الإيمائي عام (1947) ، ويعد مطوراً لهذا الفن ومجدداً له نظراً لامتلاكه القدرة الجسدية والتعبير والخيال الواسع والابتكار الإيمائي ، وأصبح أداؤه اسلوباً في حدّ ذاته ، يتبلور من خلال الخبرة الفنية والتجربة الحياتية، كما يعد ناقداً بفضل محاولته العودة بهذا الفن إلى جذوره الحقيقية ، إذ كان فناً شعبياً يتخذ من الحياة مواضيع له ، فن الممثل الواحد (مونو مايم) .

مواضع التعبير الأساسية لدى الممثل الإيمائي هي : الوجه ، الأطراف ، الجسد . يستطيع أن يعبر عن حالة معينة . إذا التمثيل الصامت يعتمد بالدرجة الأولى على الحركة أو الفعل . كما ويعاني أكثر الممثلين من الحالة الذهنية في أثناء التمرين ، وان الحالة الذهنية الطبيعية للممثل

وما يصاحبها دائما من حرية كاملة في حركة الجسم هو ناتج الاسترخاء التام للعضلات . وللحالة الذهنية والتركيز دورا مهما في الإدراك الحسي في التمثيل الصامت ، التي تتطلب تركيزا ذهنيا عاليا وتحفزا للطاقة البدنية واسترخاء تاما للعضلات تعينه على الوثوب الحركي والتشخيص والتجسيد الحركي لكل العناصر البنائية للعرض الصامت ، فما معروف في التمثيل الصامت هو القدرة الإيمائية الناتجة عن الذهن الواثب والجسد المتمكن من أداء الحركات بسرعة ودقة عاليتين ، فالحركة والتدريب الرياضي والنشاط ضروريان للممثل الإيمائي ، إذ يرى الممثل الإيمائي الفرنسي (اتيان ديكرو) : ان ممثل المسرح الصامت يجد راحته في عدم الراحة فيحتاج الممثل الإيمائي الصامت إلى التمارين الرياضة قبل البدء بالتمارين المسرحية .

عناصر العرض الإيمائي الصامت الحديث : وهو العنصر الرئيس في تنظيم صورة العرض ، إذ يدخل تحتها عناصر عدة مُكَونة له ، ومحددة لزمان ومكان والفضاء والبيئة ، وقد تكون هناك وظائف أُخَر لهذه العناصر تحددها طبيعة العمل . وقد يتركز عنصر واحد في العرض دون عنصر آخر وذلك لهدف يبتغيه مخرج العرض وكذلك لما يتسم به هذا النمط من الفنون من اختزال واضح في مكونا الفضاء على اعتباره نمطا تجريدا ذو دلالات تأويلية ترتكن على قدرة الجسد وإيماءاته في تشكيل المعنى وبيئة الحدث . ويعرف على انه الفضاء الذي يضم الكتلة والضوء واللون والفراغ والحركة وهي العناصر التي تؤثر وتتأثر بالفعل الدرامي الذي يُسهم في صياغة الدلالات المكانية في التشكيل البصري العام.
يتكون المسرح الصامت من العناصر الحسية التالية : الإيماءة الجسدية ، وتقني الأداء ، الديكور المجرد ، الإكسسوارات ، المؤثر الموسيقي ، الأزياء ، الماكياج ، الإيقاع .

التعبير الإيمائي (gesture) : وظيفة الإيماءة التعبير عن العواطف والانفعالات . كما إنها تحوي دلالتها في باطنها . الحركة الجسدية لا يفهم معناها إلا عبر موقف كلي ، إذ لا يدرك المحسوس إلا باعتباره صورة كلية ، ويظل غير منعزل عن بيئة الحدث الذي تظهر فيه ، وان معنى حركة ما لا يفهم إلا عبر خبر البدن وسياق الموقف الخارجي الذي يوضح دلالتها لدى المتلقي ، فوجودها بمفردها لا يوضح معناها وقيمتها التعبيرية . وان أفضل وسيلة لبثها وقراءة دلالاتها النفسية والمعرفية ، وسط المحيط الحسي المتنوع ، هو عبر الخبرة الجسدية . هي نمط حركي سلوكي تصور واقعا ، وجزءا أساسي من التواصل ، فالإيماءة هي الإنسان . ينفى فيها العشوائية ، فهي قصدية واعية ذات غاية ، أي أن الحركة هي ضمن فضاء القصد ، فيتطلب عند توظيفها في العرض الوضوح والتأكيد ، ووقوعها ضمن السياق التداولي والخبرة البصرية والإيحائية عند المتلقي. ويجب أن يكون شكل تصميم الحركة الإيمائية مناسبا لهدف العرض، ويكون محتوى العرض ملائما للأفكار التي يحاول المخرج تقديمها . الإيماءة لها قواعدها مثل اللغة المنطوقة وتكملها ، ويجب أن يخطط لتنفيذها .

تقنية أداء الممثل الصامت :يكون الأداء محددا وملموسا ومبنيا على الحياة ، والمؤدي يتحرك ليقتحم الوجود وموضوعاته ، عبر الحركة العمودية المتمسكة بالأرض ويعمل بالمشي وليس بالقفز ، يتعامل الممثل

مع التجريد واللا تماثل ، مع التنويع في المتغيرات والإيقاع والاستخدام ، فن لا يفرط في الطاقة والحركة العشوائية ، فن الفعل والهدف والقصد الدقيق بعيدا عن الشكلية الزخرفية والتظاهر الأدائي ، الممثل مؤدي يمشي في مكان ما إلى جهة ما محددة (من أين ، اين ، إلى أين) ، الممثل مؤدي رياضي مرن يتقن تقديم شكل الحركة الإيمائية . قيمة التعبير عبر (الوجه ، الهيئة ، وتقاليد التمثيل الصامت) ، يخلق عبر الجسد عالم إيهامي من حوائط غير موجودة ، وهواء يبدو صلبا . منهجه يتسم بالاقتصاد والإيجاز (الإيمائي ، والموضوعي ، والحسي) ، ولا يكون مقيدا بالزمن الطبيعي وبمحتوى المكان ، أي اللعب الحر للوصول إلى لحظة الدافع الحقيقي الداخلي لأزمة الشخصيات والحدث الدرامي .

مواصفات الممثل الإيمائي :(الجسدية ، والعقلية ، والأدائية) فهي : الذاكرة والحساسية ، الذكاء ، سرعة الإدراك، اللباقة والحكمة ، ناقدا للفن ، متذوقا للموسيقى ، عارفا بفن الرسم والنحت ، عارفا بمبدأ الانسجام والنسب ، متكامل الهيئة الجسدية ، سريع الحركة ومرن ، حسن الخلق ، جاد العمل ، متقن العمل من حيث النسب والتوازن ومتناسق الأداء ، ذو حس إنساني متقدم ، وان يتماها مع الموضوع المقدم . رياضي ومتمكن من أدواته ، مرتبط ببيئته الثقافية ، ذو ذاكرة حسية وانفعالية متمرسة ، عارفا بأعراف التمثيل الصامت وتقاليده ، وبمفهوم الإيماءة واليات الإرسال والقراءة .

الممثل الإيمائي ، العنصر الرئيس في العملية المسرحية ، ويقف في مقدمة عناصر العرض ، وتنبع من قدرة الجسد على الأداء في خلق سينوغرافيا العرض وسط الفراغ المكاني والدلالي ، فجسده يخلق المكان ويشكل جزءاً من الفضاء والفعل عنده هو روح التمثيل ومن الخطوط والألوان يتكون القلب النابض للمشهد . فدخول الممثل في الفضاء التمثيل يحول الفراغ إلى دلالة معرفية وجمالية ، وهذا يعني أن جميع العناصر يجب أن تكون منسجمة مع إيماءاته .

د.أحمد محمد عبد الأمير
باحث وفنان مسرحي / جامعة بابل – كلية الفنون الجميلة
Ahmeed_pantomime@yahoo.com
ورشة دمى للتمثيل الصامت